الغاية العليا في القرآن

الدكتور
عبد الستار نوير
المدرس بقسم التفسير والحديث

يتناول هذا البحث الغاية العليا في القرآن الكريم مع الإشارة إليها عند الفلاسفه ، وبيان كيف دعا إليها القرآن وأبرز آثارها وشرح العلاقة بينها وبين الزهد مع إيضاح إطاره ومعالمه . .

هناك قوانين وسنن آلهية تحكم الجانب الارادي من حياة الانسان كالقوانين التى تحكم المادة ، والتى تسيطر على الجانب اللاإردي من وجوده كحركة القلب والرئتين . .

من تلك السنن الهامة ان الغاية العليا (النهائية) التى يقصد اليها المرء ويتعلق بها ، تؤثر فيه أبلغ تأثير ، بل تهيمن على حياته وكل نشاطه ، فتجمع ازمة نفسه ، وتقوده الى مقتضاها ، وتجذبه الى السير في طريقها ، وتصبغ صاحبها بصبغتها من الخير أو الشر ، والقبح او الجمال ، انها تشكل حاضره وواقعه ، كما تقرر مستقبله ومصيره، بقدر صدقه في التوجه اليها .

ولذا كان من الضروري الحتم ان يختار المرء لنفسه اسمى مقصد وافضل غاية ، فبها يهتدي ويعرف طريقة ومنهج حياته ، ويميز بين ما يأتى ومايذر ، ما ينفع وما يضر ، وتكون له كالمنارة للسائر بليل في ثبج البحار .

وبها يجتمع شتات كيانه النفسى ويتسق ويسمو ، . اذ تستقطب فكره وشعوره ونزوعه ، وتطبع ذلك كله بطابع الخير والصلاح والكمال والجمال ، ثم توجهه وجهتها الفاضلة ، وتجذبه بقدر قوتها وتمكنها - ليسعى في سبيلها ، ويجد في السير لتحصيلها وتطلق قواه الخيرة الكامنة نحو السعادة المنشود .

انها القائد والرائد ، والباعث والضابط الذي يدعو الى البر والرشاد ويزجر عن الشر والفساد ، والذي يورث صاحبه سعادة لا تحد ونعيما لا ينفد .

ان الذي يعيش في الدنيا بلا غاية ولا هدف بعيد ، ولا يهمه الا ان يقضى شهواته . ومطالب غرائزه الحيوانية . ويحصر همه في نطاق يومه فلا يتطلع الى غده ومستقبله ، مثل هذا المخلوق يتجرد من انسانيته ويكون في منزلته كالانعام ، بل اضل ، وهو مع ذلك يضيع عمره ويخسر حياته ويسير في وجوده هائما على وجهه ، لا يدري اين يسير ؟ ولا الى أين المصير ؟ يتحرك بلا قلب ولا كيان ، مبعثر الفكر والوجدان ، مبدد الجهد والطاقة تتجاذبه الميول المختلفة ، وتتنازعه الظروف المتباينة ، فيسود حياته الحيرة والتردد ، والعبث والفوضى ، والاضطراب

والتناقض ، كراكب سفينة عميت عليه الوجهة والسبيل ، تتقاذفه الامواج هنا وهناك حتى ينفد زاده ، او يكون من المغرقين .

وفي مثل هذا من الفارغين الضائعين يقول عمر رضى الله عنه : (انى لاكره ان اري احدكم سبهللا لا في عمل الدنيا ، ولا في عمل الآخرة)[1] .

واذا كان هذا شأن من فقد الغاية ، فما بالك بمن استعبدته الغاية الضالة ، وتولى الوجهة الخاسرة ، انه بلا ريب ابعد في السوء ، وأولى بالخيبة والنكال ، وكيف لا ؟ وهمته الظلم والطغيان ، وارضاء طموحه ونزواته ، لا يعنيه ما خلفت من جنايات ، وما تركت من آثام ، وأوزار ، على هذا تدور افكاره ونوازعه ، وعلى اساسه تقوم آماله واعماله، حتى تورده موارد الشقاء والحرمان .

من هنا تبرز اهمية الغاية الصحيحة وضرورتها لسعادة الانسان واستقامته يقول الاستاذ احمد امين :[2] : (وليس للانتفاع بالزمن والمحافظة عليه ، الا طريق واحد . ذلك أن يكون لك غرض في الحياة ، ترضى عنه الاخلاق ، فتنفق زمنك في الوصول اليه) .

ثم يقول :[3] (وتحديد الغرض يوفر من الزمن الشيء الكثير ، ويسير الانسان في الحياة على هدي ، كلما صادفته امور عرف كيف ينتخب منها ما يغذي غرضه ، ويتجنب ما لا يتفق معه ، ان الذين لا يحددون اغراضهم ، ويتركون الزمن يمر عليهم كما يمر على الجماد قلما يصدر عنهم خير كبير ، او يأتون بعمل عظيم ، والانسان بلا غرض ، كالسفينة في البحر بلا مقصد ، متروكة في يد الامواج تلعب بها ،

ويلاحظ ان اكثر الناس عملا اوسعهم زمنا . ذلك لانهم محددو الغرض ، فهم يوجهون اعمالهم لنيله ، ولا يصرفون زمنهم في التردد والاختيار ، ولا يكونون كرة في يد الظروف تلعب بهم كما تشاء ، بل هم الذين يخلقون الظروف ، ويتصرفون فيها حسب اغراضهم في الحياة) .

أقول : واذا كان هذا بشأن الغرض الجزئى القريب كما يبدو ، فما ظنك بالغاية النهائية

---

(١) انظر الصحاح في اللغة والعلوم ، تجديد صحاح العلامة الجوهرى ، اعداد نديم مرعشلى واسامة مرعشلى ٥٦٦/١ ـ دار الحضارة العربية ـ بيروت .
وفي المرجع نفسه : قال الاصمعي : جاء الرجل يمشى سبهللا اذا جاء وذهب في غير شيء .

(٢) كتاب الاخلاق للاستاذ أحمد أمين ص ٢٣٥ . . دار الكتاب العربى ـ بيروت سنة ١٩٦٩م .

(٣) المرجع نفسه .

للحياة كلها ؟ .

ان لكل انسان غاية اساسية من حياته . تدور عليها افكاره ، وتتجه نحوها اعماله ، وتتركز حولها آماله ، ومتى سمت هذه الغاية وعلت ، صدرت عنها اعمال سامية مجيدة ، وانطبعت نفس صاحبها بصورة من الجمال الروحى ، وحدت به الى الكمال دائما ، حتى يأخذ بالنصيب الذي قدر له ، على ضوء ما تقدم ندرك مغزي قولهم :

(اركب زمانك كما تركب البحر تحدوك غاية) .

قف دون رأيك في الحياة مجاهدا   ان الحياة عقيدة وجهاد

المراد بالغاية :

يراد بها المقصد النهائى للمرء في حياته . اي الذي ينتهى اليه كل اغراضه واهدافه ، وآماله ، وتتجه نحوه اعماله وتصرفاته . وانماط سلوكه الارادي .

ولذا يعبر عنه فلاسفة الاخلاق ، بالغاية القصوي ، وغاية الغايات والخير الاقصى ، او النهائى ، ونحو هذا(١) .

بيان ذلك أن علماء الأخلاق عرفوا السلوك الإنسانى بأنه (أعمال المرء الارادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة)(٢) .

وهذه الغاية التى يتجه اليها عمل الانسان ، تعرف في علم الاخلاق (بالباعث الغائى) ، وهو الغاية التى تجذب المرء لعمل معين(٣) .

وهو يساوي (العلة الغائيه) التى ذكرها الفلاسفة ضمن العلل الاربع(٤) ، ويراد بهذه العلة (الامر الذي لأجله قام الفاعل بالفعل)(٥) .

---

(١) انظر تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق ، لابن مسكويه ص ٩٠ المطبعة المصرية ومكتبتها بالقاهرة ، وفلسفة الاخلاق في الاسلام للدكتور محمد يوسف موسى ص ٩٣ ، ١٦٣ ط ٣ مؤسسة الخانجى بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م .

(٢) مذكرات علم الاخلاق للاستاذ محمد يوسف موسى ١ / ٩٥ ـ مطبعة شبرا ومكتبتها بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م ، تأملات في فلسفة الاخلاق للشيخ منصور رجب بكلية اصول الدين ص ١٨٠ مطبعة مخيمر بالقاهرة سنة ١٩٥٣ م .

(٣) مذكرات علم الاخلاق للاستاذ محمد يوسف موسى بكلية اصول الدين ١ /١٠٨ .

(٤) المرجع السابق ١ /١٠٦ ، وتأملات في فلسفة الاخلاق للشيخ منصور رجب ص ١٩٠ .

(٥) مذكرات علم الاخلاق للاستاذ محمد يوسف موسى ١ /١٠٦ .

ولاشك ان كل غاية فرعية لعمل معين ، يقصد من ورائها غاية اخري هى أبعد واعم ، وهكذا حتى نصل الى الغاية القصوي النهائية التي يتفرع منها كل الغايات والاعمال في حياة الانسان وتهيمن عليها ، ولا توجد غاية بعدها ، وهذه هى التى تراد هنا . .

وفي تقرير هذا يقول ابن القيم : (لابد من محبوب مراد لنفسه لا يطلب ويحب لغيره ، إذ لو كان كل محبوب يحب لغيره ، لزم الدور أو التسلسل في العلل والغايات ، وهو باطل باتفاق العقلاء)(١) .

ما يكون غاية عند فلاسفة الاخلاق :

اذا كان ما ذكر هو مفهوم الغاية ، فما هو الشيء أو الخير الاعظم الذي يجب ان يكون هو الهدف الأعلي للانسان ؟ .

قد يكون من المناسب او المفيد أن أنبه على طبيعة الفكر الفلسفي في الموضوع ، بالاشارة السريعة الى طائفة مما ورد به من الآراء فيما يكون الغاية ، قبل ان نبين رأى القرآن ، لابراز فضله واحكامه ووضوح هدايته . .

تناول فلاسفة الاخلاق ذلك بالبحث ، فاختلفت مذاهبهم اختلافا بينا فيما يكون الغاية العليا ، فمنهم من قال باللذة ، ومنهم من قال بالمنفعة ، ومنهم من قال بالمشاعر الوجدانية ، ومنهم من قال بالزهادة ، ومنهم من قال بغير ذلك مذاهب كثيرة متداخلة ، اومتعارضة ، تتسم بالغموض والتجريد والاطلاق والشرود ذلك انها بعدت عن هدى السماء ، ونهج المرسلين . .

وأرى أن ألقى ضوءا على هذا من أقوال المتخصصين : جاء بكتاب مبادىء الفلسفة :(٢) (المسألة الثانية من المسائل التي وجه اليها فلاسفة الاخلاق نظرهم ، وذهبوا فى الاجابة عنها مذاهب ، مسألة الغاية او الغرض من اعمال الانسان الاخلاقية ، ان الاعمال الاختيارية يعملها الانسان ، وأمام نظرة غاية من اجلها يعمل العمل . وذلك أن الانسان لما كان حيوانا ناطقا (مفكرا) قد منح قوة فكر ، بها يستطيع ان يدرك العلاقة بين الاعمال وبين ما تؤدى اليه من النتائج ، لم يكن ملجأ الى العمل بمجرد الدوافع (كما هو الشأن فى الحيوان) وانما هو منقاد

---

(١) اغاثة اللهفان لابن القيم ٢ / ١٣٥ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ، وانظر تفسير الفخر الرازى ٤ / ٢٠٦ ط ٢ ، دار الكتب العلمية ـ طهران .

(٢) مبادىء الفلسفة تأليف أ . س . رابوبرت دكتور في الفلسفة ترجمه عن الانجليزية الاستاذ أحمد أمين ص ١٧٨ .

ومتأثر برغبة فى غاية يريد تحصيلها ، فالأعمال الاخلاقية أو السلوك الأخلاقى إذن وسيلة يحاول بها الانسان ان يصل الى غاية ، فما هذه الغاية الاخيرة والخير النهائى الذى يشتاق الانسان للوصول اليه ، ويجد في البحث عنه ؟ .

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى ، تحت عنوان (ما يكون باعثا :[1] (وإذا كان الباعث الغائي هو محل عناية دارس علم الاخلاق ، فقد اختلف علماء الاخلاق فيما يكون باعثا ، أو بتعبير آخر فى الغاية التى تسيطر على جميع الغايات ، وتبعث الانسان للعمل ، أهى اللذة كما قال بذلك قوم ؟ أو المشاعر الوجدانية لذة أو غيرها ، كما قال به آخرون ؟ ، أو العقل وحده كما نادى به سقراط ؟ وكان من هذا الخلاف المذاهب الادبية المختلفة) .

وفى مذهب اللذة والمنفعة ، يقول الاستاذ أحمد أمين :[2] (والذين قالوا ان الباعث انما هو اللذة اختلفوا ، هل يبعث الانسان على العمل لذته الشخصية وحبه لنفسه فقط ، وليس له باعث غير ذلك ؟ أو قد يبعث على العمل لذة الناس ومنفعتهم ايضا ؟) .

ثم يقول فى مقياس الخير والشر :[3] (والذين ذهبوا هذا المذهب انقسموا قسمين : فمنهم من قال (ان المقياس هو لذة العامل الشخصية ويسمى هذا (مذهب السعادة الشخصية) ومنهم من قال : ان المقياس هو لذة كل المخلوقات الحساسة ، ويسمى (مذهب السعادة العامة ويسمى هذا الاخير ايضا (مذهب المنفعة)[4] .

وفي مذهب المشاعر الوجدانية يقول الدكتور محمد يوسف موسى :[5] (الثانى : الباعث هو المشاعر الوجدانية لذة أو غيرها ، فكل عمل له باعثه ، وهو الشعور الوجداني الذي يثير ميلا إليه ، وهذا الشعور قد يكون لذة أو الما ، أو حقدا ، أو حسدا ، أو غيرها ، وأشهر القائلين بذلك هو دافيد هيوم) .

وفي مذهب الزهادة قال الشيخ منصور رجب :[6] (واذا كنا قد رأينا من يقول : بان الباعث للانسان على عمله هو (اشباع اللذة او تحاشى الالم) فإنا على العكس من ذلك تماما نرى قوما يقولون : بل ان الباعث للانسان على عمله ، او ما ينبغي أن يكون باعثا للانسان على

---

[1] مذكرات علم الاخلاق للاستاذ (الدكتور) محمد يوسف موسى ١/ ١٠٩ .

[2] الاخلاق للاستاذ أحمد أمين ص ٦٠ ، مؤسسة منطورة للطباعة - بيروت سنة ١٩٦٩ م .

[3] المرجع نفسه ص ٩٠ .

[4] المرجع نفسه ص ٩٥ .

[5] مذكرات علم الاخلاق للاستاذ (الدكتور) محمد يوسف موسى ١/ ١١١ .

[6] تأملات في فلسفة الاخلاق للشيخ منصور على رجب ص ٢١٠ .

عمله ، انما هو (الترفع عن المطالب المادية ومناعم الحياة) ، أو بعبارة أخرى يقولون : إن الباعث هو (الزهادة) .

وعلى رأس المدارس التى قامت على هذه التعاليم ، مدرسة (الكلبيين) - أسسها (انتستانس حوالى ٤٤٠ - ٣٧٠ ق . م وكان من تلاميذ سقراط الذين حضروا ساعاته الأخيرة ، وكان يقول :

(ان تجنب ملذات الحياة المادية هو الطريق الوحيد الى سلام البشرية وسعادتها - وسميت المدرسة بذلك ، لأن تلاميذها كانوا مثل الكلاب لا منازل لهم ، وانما يرقدون فى أروقة المعابد ، أولعلهم كانوا يأوون في الشتاء الى الحمامات العامة ، ويعيشون على كسرات من الخبز كان يستطيع أى أنسان ان يعثر عليها . .) .

هذه نماذج من المذاهب الفلسفية ، في الغاية القصوي لاعمال الانسان وانشطته الاختيارية ، وهى - كما ترى - تستهدف امورا دنيوية وتنحصر فيها ، مع ما توصف به من الكثرة والاختلاف ذلك ان اصحابها لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ايمانا صحيحا ولم يهتدوا بنور الوحى الالهى المنزل ، ومن هنا لم يرد لشيء من ذلك ذكر فى كلامهم من قريب أو بعيد . .

ما يكون غاية في القرآن الكريم :

والحق البين ما جاء به القرآن الكريم انه لا يوجد امام الانسان في هذه الحياة الا غايتان : خسيسة ، وشريفة ،

فالخسيسة هى الدنيا .

والشريفة هى الآخرة . .

ويراد بالدنيا متاعها بكل صنوفه والوانه الحسية والمعنوية ، المادية والادبية من مطعم ومشرب ، وملبس ومسكن ومركب ، ونساء وأموال وبنين ، وأمن وطمأنينة ، وجاه ومنزلة ، ومظهر وزينة . وسائر ما افتتن الناس به منها .

ويراد بالآخرة رضوان الله وثوابه فيها مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، من النعيم الحسى والمعنوي والروحي ، وقمته رضوان الله ، والنظر الى وجهه الكريم ، من بداية ما يجد المرء من ريح الجنة ، بل من بداية ما يرى من البشرى عند الموت الى ما لا نهاية

(لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى)(١) (لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين)(٢) .

هذا مع السلامة والنجاة من النار بجحيمها واهوالها . مما لا يوصف من العذاب والنكال ، نسأله تعالى الجنة ونعوذ به من النار .

والقرآن الكريم يدل على هاتين الغايتين في صراحة ووضوح . والآيات فيهما كثيرة - ستأتى ان شاء الله - منها قوله تعالى :

(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وازواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد)(٣) .

(كل نفس دائقة الموت وإنما توفون اجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الى متاع الغرور)(٤) .

ومن اجل هذا قالوا : الغاية غايتان :

دنيا يعيش عليها الادنياء .

وعليا يحيا لها الفضلاء . .

فالدنيا : هى (المادية) التى علقت قلوب الناس بعبادة المال والشهوات العاجلة . .

والعليا : هى (الربانية) التى علقت قلوب المؤمنين برضوان الله وثواب الآخرة ، وجعلت طيبات الحياة خدما لذلك وتبعا .

نعم لا يوجد امام الناس الا هاتان الغايتان ، هكذا قدر الله واقتضت حكمته - وانت مهما تتبعت افراد الناس لتتعرف على مقاصدهم النهائية ، لا تجد الا احد رجلين : اما رجل يريد العاجلة لا هم له الا متاعها . لانه كافر بالآخرة ، او لانه ضعيف الايمان بها قد غلبت عليه الشهوات والاهواء ، واما رجل يريد الآخرة ، قد آثرها وجعل الدنيا وسيلة لها . .

خذ مثلا الطالب الذى يدرس ويتعلم ، وفتش عن مقاصده ونواياه . وانظر الى أى شيء تنتهى ، تجد أنه يقضى فترة طويلة او قصيرة ، من عمره فى الدراسة لينال شهادة علمية معينة .

---

(١) الدخان : ٥٦ .

(٢) الحجر : ٤٨ .

(٣) آل عمران : ١٤ ، ١٥ .

(٤) آل عمران : ١٨٥ .

وهو يطلب الشهادة العلمية من اجل الوظيفة والعمل .

ويطلب الوظيفة والعمل من اجل المال والمعيشة الراضية ، في دنياه والمفروض ان الدنيا انما تقصد من اجل التزود للآخرة ، حيث يفوز بالثواب والرضوان .

فمن وقف عند التعلق بالدنيا بحيث كانت هى اكبر همه . ومبلغ علمه كانت غايته الدنيا .

ومن ارتقى في سلم الغايات الى التعلق بالآخرة ، بحيث كانت باعثه الاسمى كانت غايته الآخرة .

وما يقال عن الطالب يقال عن الزارع ، والصانع والتاجر ، وصاحب المهنة ورجل الاعمال وغيرهم من اصناف الناس .

فالمرء تتسلسل مراميه(١) حتى تصل الى القمة التى لا شيء فوقها كما تقدم . وهذا هو السر في أن القرآن أفاض في التحذير من الدنيا ، والترغيب في الآخرة ، وفي الموازنة وعقد المقارنات بينهما . وسيأتى في موضعه من البحث ان شاء .

وللاستاذ البهى الخولى فى هذه المسألة الاساسية كلام بليغ ، قال رحمه الله تحت عنوان « ذبذبة بين غايتين »(٢) : « فى أخبار الادب المشهورة ان الحطيئة هجا الزبرقان ابن بدر رضى الله عنه فقال :

دع المكارم لاترحل لبغيتها . . . واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فهاج وماج ، وأرغى وأزبد ، وشكا الأمر الى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فسأل عمر حسان بن ثابت ، وهو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبين له قيمة الهجو فى هذا الشعر ، ولم يكن ذلك جهلا من عمر بمرامى الكلام ، فأجاب حسان بما معناه ، الأمر أفحش من الهجاء ، وان اقذع الهجاء لاهون من هذا بكثير ، وانه لدنس صبه عليه لاتقوم به كرامة ، فقضى عمر بحبس الشاعر فى سجن مظلم .

والقارىء لايرى فى هذا الكلام ذكرا للآباء والأمهات ، ولاتعريضا بالأعراض والسوءات ، ومع هذا كانت منزلته فى الهجو ماقرره حسان رضى الله عنه ، لم يقل الحطيئة للزبرقان الا ان يقعد عن طلب معالى الأمور ، ولايجشم نفسه تحصيل المكارم التى تشرف بها النفوس فإن همته لاتتعلق بشيء من ذلك ، وانه اذا كلف نفسه مشقه فى هذا السبيل فقد

---

(١) انظر تسلسل الغايات وتعددها في كتاب الخلق الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ١/٥٦ مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

(٢) تذكرة الدعاة للاستاذ البهى الخولى ص ٢١ دار القلم ط ٥ ـ دمشق سنة ١٩٧٧ م .

اعنتها ، وكلفها ماليس من طبيعتها ، اذ لايليق به الا ان يركن الى الطعام واللباس ، فليس يصلح الا لهذين ، ولامأرب لهمته الا فيهما ، او قال له بالتعبير العصرى : ان مثلك الاعلى الذى تعيش له ، ولاتصلح لغيره ، هو الاستغراق فى شهوة الطعام واللباس .

وفى هذه القصة معنيان بارزان :

الأول : أن الحطيئة كان خبيرا بالحياة ، وأنها ذات وجهين او غايتين غاية خسيسة يعيش عليها الادنياء ، وغاية شريفة يحيى لها الفضلاء فالاولون يرون سعادتهم فى لذة المطعم والملبس وكفى والآخرون يجدون لتحصيل زادهم من الفضيلة ، ومتاع نفوسهم من الخير والحق ، وهذا هو ماكانت تقوم عليه الحياة فعلا فى ذلك العهد العمرى الزاهر .

اما المعنى الثانى الذى يبرز فى هذه القصه ، فهو ان شعور الرأى العام كان شديد الحساسية بالفارق العظيم بين الغايتين ، فكان احدهم يسمو بهمته ان تنضمر فى مطالب المعدة وترف البدن ، ويفزع ان يوصم بين الناس بهذه الوصمة القاصمة ، والى مكان هذا الفزع سدد الحطيئة ضربته القاسية الى غريمة ، أو صب عليه دنسا لاتقوم به الكرامة ، على معنى ماقال حسان رضى الله عنه .

١ ـ غايتان احداهما دانية المنال ، والاخرى بعيدة المدى .

٢ ـ حساسية مرهفة فى الشعور ، تصد عن الغاية الاولى ، وتثير اشواق العزائم الى الاخرى .

وهاتان هما دعامتا الحياة الفاضلة ياأخى ، اعتراف بغايتين ، وحساسية تحقر الاولى ، وتمجد الاخرى ، والناس بخير ماسلمت لهم هاتان الدعامتان هذا منطق الفطر المستقيمة ، والعقول السليمة ، فهل هذا هو ماتقوم عليه اساليب الحياة فى حضارتنا المادية السائدة ؟ »

أ هـ .

الآخرة عقيدة وغاية :

لايكون الشيء مقصدا ولاغاية ، الا اذا علم المرء اولا ، أنه حق وخير وأفضل من غيره ، وآمن بذلك ايمانا ثابتا ، بعد هذا يمكن ان يطلبه ويتخذه غاية له .

ولايتصور ان يقصد الانسان الى شيء بوجه ما ، وهو لايعرفه ولايؤمن به كما سبق ، لان النفس ـ كما يقول المناطقة ـ لاتتجه الى المجهول المطلق ، والعاقل لايبغى مالا وجود له ، ومالاخير فيه .

لذا كان الايمان بالآخرة ، وبما ورد فى شأنها من أنواع التعظيم والترغيب ، وبيان انها خير وابقى من هذه العاجلة بغير حدود ، هو السبب فى التوجه اليها وإيثارها عليها ، وطلبها كغاية

تعلوولاتعلى . وهذا من أعظم آثار الايمان ، وأبرز ثمار اليقين ، ومن هنا كان علامته المميزه ، وأوضح المظاهر على قوته او ضعفه .

إن هذا الايمان اذا تشربه القلب ، وانشرح له الصدر ، تحول مؤشره حتما - على قدر ذلك - من الدنيا الى الآخرة ، كما يتحول مؤشر البوصلة الى قطبه الأصيل .

وهذا أمر تثبته المشاهدة كما نرى فى حياة الصحابة رضوان الله عليهم وكما تدل عليه آيات القرآن وهى كثيرة ، وقصة مؤمن آل فرعون واضحة فى أن ايمانه بالآخرة بعثه على التعلق بها ، والجهاد لها ، والدعوة اليها ، وقد صرح القرآن بذلك ، قال تعالى فيما حكاه عنه : « وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار » .(١)

وقد وردت بذلك الآثار والاحاديث ، وفى تفسير قوله تعالى : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للإسلام »(٢) روى ابن كثير(٣) بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام » قالوا : يارسول الله ، وكيف يشرح صدره ؟ قال : « يدخل فيه النور فينفسح ، قالوا : وهل لذلك علامه يارسول الله ؟ قال : التجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ،والاستعداد للموت قبل ان ينزل الموت » .(٤)

يقول الامام الغزالى فى العلم الاعتقادى الذى يثمر ايثار الآجله ، والزهد فى العاجلة :(٥)« وأما العلم الذى هو مثمر لهذه الحال ، فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالاضافة الى المأخوذ ، كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه ، ومالم يتحقق هذا العلم لم يتصور ان تزول الرغبة عن المبيع فكذلك من عرف ان ماعند الله باق ، وأن الآخرة خيروأبقى أى لذاتها خيرفى نفسها وابقى ، كما تكون الجواهر خيروأبقى من الثلج مثلا ولايعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلىء ، فهكذا مثال الدنيا والآخرة ، فالدنيا كالثلج الموضوع فى

---

(١) غافر : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) الانعام : ١٢٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/١٧٥ .

(٤) قال ابن كثير : رواه ابن جرير متصلا مرفوعا عن ابن مسعود ، وبعد ان ذكر له عدة طرق اخرى قال : فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضا . (المرجع السابق) .

(٥) إحياء علوم الدين للامام ابى حامد الغزالى ٥/٢٤٤٥ - دار الفكر - بيروت طبعة مصورة عن طبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية سنة ١٣٥٦ هـ .

الشمس ، لايزال فى الذوبان الى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذى لافناء له .

فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة ، تقوى الرغبة فى البيع والمعاملة حتى أن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة » (١) ، ثم بين ان صفقتهم رابحة فقال تعالى : « فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به » .(٢)

فليس يحتاج من العلم فى الزهد الا الى هذا القدر ، وهو أن الآخرة خير وابقى ، وقد يعلم ذلك من لايقدر على ترك الدنيا اما لضعف علمة ويقينه واما لاستيلاء الشهوة فى الحال عليه ، وكونه مقهورا فى يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يوما بعد يوم ، الى ان يختطفه الموت ، ولايبقى معه الا الحسرة بعد الفوت .

والى تعريف خساسة الدنيا الاشارة بقوله تعالى : « قل متاع الدنيا قليل »(٣) والى تعريف نفاسة الآخرة الاشارة بقوله عز وجل : «وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير »(٤) فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه » أ ـ هـ(٥)

القرآن يدعو الى إيثار الآخرة :

نعم القرآن يدعو الى إيثار الآخرة على عرض هذا الأدنى ، وأن تكون هى المطلب الاسمى ، والهدف الأعلى ، الذى تتعلق به القلوب والبصائر وتجند له المواهب والامكانات والاعمار ، وتدور حوله اعمال الانسان وحركته فى الحياة .

ولعلماء المسلمين وأئمتهم أقوال استقوها من نصوص الوحى والكتاب العزيز ، تؤيد ذلك وتؤكده ، نذكر طرفا منها :

يقول الدكتور محمد يوسف موسى :(٦) « هذا ، ومهما اختلفت طرائق المسلمين فى الحياة وفهمهم لها ، فقد كانت الغاية العليا ، والسعادة التى ليس وراءها سعادة عندهم ، سعادة

---

(١) التوبة : ١١١ .
(٢) التوبة : ١١١ .
(٣) النساء : ٧٧ .
(٤) القصص : ٨٠ .
(٥) هذا ما قاله الغزالى ، وقد ورد مثله لابن القيم في كتابه الفوائد ص ٩٤ ط ٢ . دار الكتب العلمية ـ بيروت .
(٦) فلسفة الاخلاق في الاسلام للدكتور محمد يوسف موسى ص ٣٥ ط ٣

الأخرة وماوعد الله فى جناته ، كل لها يرجو ، وكل لها يعمل ، والكل قد اختار طريقه اليها ، بعد أن جعلها القرآن الغاية وبين لها السبل » .

ويقول ابن القيم :(١)« اعلم ان القلب اذا خلى من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال ، أو رياسة ، أو صورة ، وتعلق بالآخرة ، والاهتمام بها من تحصيل العدة ، والتأهب للقدوم على الله عز وجل : فذلك أول فتوحه .. وتباشير فجره » .

وكذلك يرى الامام الغزالى ان السعادة الاخروية هى السعادة الحقيقية والغاية الصحيحة فيقول(٢)« اعلم ان السعادة الحقيقية هى الآخروية ، وماعداها سميت سعادة إما مجازا أو غلطا ، كالسعادة الدنيوية التى لاتعين على الآخرة ، وإما صدقا ولكن الاسم على الآخروية أصدق ، وذلك كل مايوصل الى السعادة الاخروية ويعين عليها ، فإن الموصل الى الخير والسعادة يسمى خيرا وسعادة » .

وجاء فى إغاثة اللهفان .(٣)« وكل حى فله إرادة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فله غاية يتحرك اليها ، ولاصلاح له الا ان تكون غاية حركته ونهاية مطلبه هو الله وحده ، كما لاوجود له الا ان يكون الله وحده هو ربه وخالقه ، فوجوده بالله وحده ، وكماله ان يكون لله وحده » .

وجاء فى الاحياء :(٤)« الآيات الواردة فى ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة ، واكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا ، وصرف الخلق عنها ، ودعوتهم الى الآخرة ، بل هو مقصود الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم يبعثوا الا لذلك » .

هذه طائفة من أقوال العلماء والمفكرين فى تقرير المعنى المتقدم فما تفاصيل ذلك من القرآن الكريم نفسه .

كيف دعا القرآن إلى الآخرة :

من يتأمل القرآن الكريم ، يجد أن دعوته الى الآخرة ـ وحثه عليها ـ تشمل الأصول التالية :

الأول : إثبات أن الآخرة حق لاريب فيه ، بمختلف الأدلة ووسائل الإقناع .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٣/٣٧٩ ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت .

(٢) ميزان العمل للامام الغزالى ص ١٠٣ ـ مكتبة الجندى ـ القاهرة .

(٣) اغاثة اللهفان لابن القيم ٢/١٣٦

(٤) إحياء علوم الدين للامام الغزالى ٣/١٧٠٩ .

الثانى : بيان فضل ثواب الآخرة وسعادتها بالمقارنة بينها وبين متاع الحياة الدنيا ، مع تصوير ذلك وتجليته بالأمثال .

الثالث : بيان فضل السعى الى الآخرة بالمقارنة بين عاقبته الحسنى وعاقبة الخيبة والشقاء فى السعى الى الدنيا كغاية ، إذ ليس كل شيء قيم فى ذاته يكون السعى للحصول عليه ممكنا ومجديا ، كالذهب الذى يتعذر الحصول عليه ، أو تفوق قيمته تكاليفُ استخراجه ، وبعبارة اخرى تقل قيمته عن تكاليف استخراجه .

الرابع : رسم المنهج الموصل الى سعادة الآخرة اساسا والدنيا تبعا .

الخامس : نصب القدوة المثلى التى تشد العزائم ، وتقوى الرغبة فى التأسى بها فى طلب الآخرة والتزام منهجها ، وتثير أشواق النفس الى ذلك من الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين .

هذه هى الأصول الكبرى لما ذكر ، وأود الآن ـ إن شاء الله ـ أن اتناولها بالبيان تباعا ، وبالله التوفيق .

الأصل الأول : إثبات الآخرة :

لايمكن إثبات الآخرة والبعث الا بعد الايمان بالله وصفات كماله ، وعلى أساس التسليم بهذا .

ذلك أن دليلها يتكون من اثبات أمرين عظيمين ، ويقوم عليهما معا ، ولاينهض بأحدهما دون الآخر :

الأول : أنها مقتضى العدل ، والحكمة الالهية ، وانه تعالى قد ارادها ووعد بها .

الثانى : أنه تعالى قادر على تحقيقها وإيجادها .

وفيما يلى التفصيل :

أولا : الآخرة مقتضى العدل والحكمة :

هذا حق ، لأن الله عز وجل كلف العباد ، وأرسل اليهم رسلا ، وأنزل عليهم كتبا ، وسن لهم شرائع ، وحد حدودا ، فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ، ومنهم من أطاع ومنهم من عصى .

وعدل الله يقتضى ـ ولابد ـ ان يجازى كل مكلف بما عمل ، ولايمكن ان يستوى فى ميزانه سبحانه مؤمن وكافر ، ولابار وفاجر ولامصلح ومفسد .

ومن المقرر أن أحدا لا يأخذ جزاءه الحق فى هذه الدنيا ، لان الله قضى ان تكون دار إبتلاء لادار جزاء .

فلابد إذن من حياة أخرى لتوفى كل نفس ماكسبت ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ليتحقق فيها عدل الله ، هذا حكم الله قال تعالى :

« كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » .(١)

« واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون » .(٢)

« افنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون » .(٣)

« افمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون » .(٤)

« ومايستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ماتتذكرون إن الساعة لآتية لاريب فيها ولكن اكثر الناس لايؤمنون » .(٥)

وهذا الجزاء هو الحكمة العليا لهذا الوجود .

فقد خلق الكون للإنسان ، وخلق الانسان ليكلف ويختبر ، ثم ليجازى بما عمل .

فلو لم يكن هذا الجزاء ، لكان التكليف والاختبار عبثا ، وكان خلق الانسان عبثا ، وخلق الكون باطلا ، وكل هذا مستحيل عليه سبحانه .

إن المرء لايتصور فى شخص عاقل مدبر أن يبنى عمارة هائلة ، على ابدع نظام ، ثم يزينها بأفخم الاثاث ، ويزودها بكل وسائل الترف والنعيم ، أن يفعل ذلك بلا هدف ولاغاية ، فيعطلها عن السكنى ولايحقق منها مصلحة ما ، ثم يكر عليها فينسفها من القواعد نسفا .

إن هذا لايتصور من عاقل ، ولو فعل لاستحق الوصف بالجهل والسفه والإفساد .

فكيف يعقل فى حقه تعالى أن يخلق الانسان ، ويبنى هذه العمارة الكونية العظيمة الرائعة ، بلا حكمة عليا ، ولامهمه حقيقية ؟ هذا مستحيل ، بل هو من أوضح المستحيلات ، والآيات فى هذا المعنى كثيرة . قال تعالى : « ايحسب الانسان ان يترك سدى » .(٦)

« افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لاترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لاإله الا هو رب العرش الكريم » .(٧)

« وماخلقنا السماوات والارض ومابينهما الا بالحق وإن الساعة لآتية فأصفح الصفح

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .

(٢) البقرة : ٢٨١ .

(٣) القلم : ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) السجدة : ١٨ .

(٥) غافر : ٥٨ ، ٥٩.

(٦) القيامة : ٣٦ .

(٧) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦ .

الجميل » . (١)

« وماخلقنا السماء والارض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار » . (٢)

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون ، وخلق الله السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون » . (٣)

هذا ، وقد وعد الله بتلك النشأة الآخرة ، ومعنى هذا أن إرادته تبارك وتعالى ، قد تعلقت بايجادها فى وقتها الذى استأثر بعلمه ، يقول الله عز وجل :

« يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين » . (١)

« واقسموا بالله جهد ايمانهم لايبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن اكثر الناس لايعلمون ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين » . (٥)

« زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم وذلك على الله يسير » . (٦)

« إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون » . (٧)

من العرض السابق نعلم أن الجزاء الأخروى مقتضى العدل والحكمة الالهية العليا ، وأن الله قد وعد به وتعلقت به مشيئته . جاء بكتاب معالم الدعوة : (٨) « إن الجزاء فى الآخرة أمر تقضى

---

(١) الحجر : ٨٥ .

(٢) سورة ص : ٢٧ . ٢٨ .

(٣) الجاثية : ٢١ ، ٢٢ .

(٤) الانبياء : ١٠٤ .

(٥) النحل : ٣٨ ، ٣٩ .

(٦) التغابن : ٧ .

(٧) يونس : ٤ .

(٨) معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم (رسالة دكتوراه) بقلم عبد الوهاب بن لطف الديلمي ١ / ٢٣٤ ط ١ دار المجتمع ـ جدة .

به الحكمة ولايمكن لإله حكيم أن يخلق ذلك الخلق الواسع من سماء وأرض ، ومابينهما ومافيهما ، ثم لايجعل للناس حياة يوضع فيها الميزان القسط ، ينقلب فيها القوى ضعيفا والضعيف قويا ، وترجح فيها كفة العمل الصالح على كفة الفساد ، ذلك ماتقتضيه الحكمة وتتطلبه المصلحة » .

ويقول الاستاذ سيد قطب :[1]« الواقع أن تدبر مافى خلق السماوات والأرض من دقة وحكمة وقصد ظاهر ، وتنسيق ملحوظ ، وخلق كل شيء بمقدار لايزيد ولاينقص عن تحقيق الغاية من خلقه ، وتحقيق تناسقه مع كل شيء حوله ، وظهور القصد فى خلق كل شيء بالقدر والشكل الذى خلق به ، وانتفاء المصادفة والعبث فى أى جانب صغر أو كبر فى تصميم هذه الخلائق الهائلة ، ومافيها من خلائق دقيقة لطيفة .

الواقع ان تدبر هذا كله يوقع في النفس أن لهذا الخلق غاية فلا عبث فيه ، وأنه قائم على الحق فلا باطل فيه ، وأن له نهاية لم تأت بعد ، ولا تجيء بالموت ، بعد هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب وأن أمر الآخرة ، وأمر الجزاء فيها حتم لابد منه من الناحية المنطقية البحتة لهذا التصميم المقصود فى بناء هذه الحياة وهذا الوجود ، حتم تتحق به النهاية الطبيعية للصلاح والفساد فى هذه الحياة الدنيا . .

قدرة الله على النشأة الآخرة :

اذا كانت الآخرة مقتضى عدله تعالى وحكمته ، وقد وعد بها وارادها فهل هو قادر على ايجادها وخلقها ؟ .

والجواب : نعم هو تعالى قادر على ذلك ، وهو عليه يسير ، ولا ريب وقد اثبت الكتاب العزيز هذه الحقيقة الكبرى ونفى عنها كل لبس وازال كل شبهة ، ببراهين متعددة يشتمل كل منها على آيات كثيرة نكتفى ببعضها :

الأول : برهان النشأة الاولى ، فان من قدر على البدء يقدر على الاعادة بالاولى ، وهذا فى حكم البديهى ، قال تعالى : (ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون)[2] .

أى فلولا تذكرون (أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى فانها اقل صنعا لحصول المواد ، وتخصيص اجزاء ، وسبق المثال)[3] .

---

(١) في ظلال القرآن للاستاذ سيد قطب ٧/ ٣٧٠ ط ٧ دار احياء التراث العربي - بيروت سنة ١٩٧١ م .

(٢) الواقعه : ٦٢ .

(٣) تفسير البيضاوى ص ٧١٢ . دار الجيل - بيروت .

وقال تعالى : (ويقول الانسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا ، أولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا)(١) .

(وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الاعلى فى السماوات والارض وهو العزيز الحكيم)(٢) .

(أولم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم اجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون الا كفورا)(٣) .

الثانى : برهان الخلق الاكبر ، فان خلق الكون بسمائه وأرضه ، وما فيهما من اصناف الكائنات ، اجل واعظم من خلق الانسان ، ومن قدر على ذلك قدر على اعادة الانسان بالاولى ، قال تعالى : (لخلق السماوات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون)(٤) .

يقول صاحب السراج المنير :(٥)(تقدير هذا الكلام ان الاستدلال بالشيء على غيره ينقسم ثلاثة اقسام : أحدها : ان يقال لما قدر على الاضعف وجب ان يقدر على الاقوى ، وهذا فاسد ، ثانيها : ان يقال لما قدر على الشيء قدر على مثله فهذا الاستدلال صحيح لما ثبت فى الاصول ان حكم الشيء حكم مثله .

ثالثها : أن يقال لما قدر على الاقوى الاكمل ، قدر على الاقل الارذل ، بالاولى وهذا الاستدلال فى غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل البته .

ثم ان هؤلاء القوم يسلمون ان خالق السماوات والارض هو الله تعالى ، ويعلمون بالضرورة ان خلق السماوات والارض اكبر من خلق الناس ، وكان من حقهم ان يقروا بان القادر على خلق السماوات والارض يكون قادرا على اعادة الانسان الذى خلقه أولا) .

وقد صرح القرآن بالمقصود فى قوله تعالى : (أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على ان يحيى الموتى بلى انه على كل شيء قدير)(٦) .

---

(١) مريم : ٦٦ ، ٦٧

(٢) الروم : ٢٧ .

(٣) الأسراء : ٩٩ .

(٤) غافر : ٥٧ .

(٥) تفسير السراج المنير للشيخ الخطيب الشربينى ٣ / ٤٩٠ ـ دار المعرفة ـ بيروت .

(٦) الاحقاف : ٣٣ .

يقول الفخر الرازى في تفسيرها :(١)(والقادر على الاقوى الاكمل ، لابد وأن يكون قادرا على الأقل والاضعف ، ثم ختم الآية بقوله (انه على كل شيء قدير والمقصود منه ان تعلق الروح بالجسد أمر ممكن اذا لو لم يكن ممكنا في نفسه لما وقع أولا ، والله تعالي قادر على كل الممكنات ، فوجب كونه قادرا على تلك الاعادة وهذه الدلائل يقينية ظاهرة) .

وقال تعالي : (بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون ، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا اساطير الاولين ، قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ،سيقولون الله قل افلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فانى تسحرون)(٢) .

وقد تضمنت هذه الآيات انكار الكفار للبعث والقيامة ، كما تضمنت الرد عليهم والاحتجاج بأمور ثلاثة : بأنه الله تعالى هو الذى خلق الارض بكل ما فيها والذى خلق السماء بكل ما تحوى ، والذى بيده ملكوت كل شيء ، ووجه الاستدلال بما ذكر ان من كان شأنه هكذا قدر حتما على اعادتهم بعد موتهم وعلى ان يخلق كونا جديدا بسمائه وأرضه(٣) .

الثالث : برهان احياء الارض بعد موتها . فانه تعالى ينزل الماء على الارض فيحييها بانواع الزرع والشجر ، والوان الزهر والثمر ، ومن يفعل ذلك كان قادرا على البعث وأحياء الانسان بعد موته . وهو من اظهر البراهين لانه مشاهد ومتجدد ، وقد صرح به القرآن في كثير من الآيات ، مثل قوله تبارك تعالي : (وهو الذي يرسل الرياح بشرى بين يدى رحمته حتي اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون)(٤) .

قال الشوكانى :(٥)(قوله كذلك نخرج الموتى) أى مثل ذلك الاخراج وهو اخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم (لعلكم تذكرون) أى تتذكرون فتعلمون بعظيم قدرة الله

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٢٨/٣٤ ط ٢ .

(٢) المؤمنون : ٨١ - ٨٩ .

(٣) انظر تفسير الفخر الرازى ٢٣/١١٥ ، وتفسير الالوسى ١٨/٥٧ ، ٥٨ دار احياء التراث العربى - بيروت .

(٤) الاعراف : ٥٧ .

(٥) تفسير (فتح القدير) لمحمد بن على بن محمد الشوكانى ٢/٢١٤ ، دار الفكر - بيروت .

وبديع صنعته ، وانه قادر على بعثكم كما قدر على اخراج الثمرات التى تشاهدونها) .

وفى هذا المعنى يقول تعالى : (من آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى احياها لمحى الموتى انه على كل شىء قدير)(١) .

(والله الذى ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور)(٢) .

الرابع : إحياء الله بعض الموتى في الدنيا ، ذلك ان من أحيا نفسا واحدة فهو قادر على إحياء الجميع ، لانهم متماثلون ، وسنة الاحياء فيهم واحدة وصدق الله اذ يقول : (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة)(٣) .

وقد وردت آيات عديدة في إحياء بعض الناس في الدنيا بعد موتهم منها قوله عز وجل : (واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون ، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون)(٤) .

(واذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون)(٥) .

الخامس : الايقاظ بعد الإنامه . لان النوم اخو الموت . والايقاظ اخو البعث ، وتوفى نفس النائم ، ثم ايقاظه بارسالها اليه دليل على أن الله يحى الموتى ويبعث من فى القبور لانهما سيان .

وتلك ظاهرة بشرية نراها فى انفسنا وفي غيرنا . وتتكرر كل يوم لو نظر المرء الى البلدة او المدينة التى يقطن بها ، وتأمل حالها في هدأة الليل وساعات السحر ، لوجد اهلها كبيرهم وصغيرهم قد استسلموا للنوم ، وسكنوا سكون الموتي ، وتوقف سعيهم في الحياة ، فلا حركة ولا صوت .

ثم انظر اليهم في الصباح تجدهم قد بعثوا من جديد ، وملأوا الدنيا نشاطا وركضا وصخبا ، هكذا يميتهم ربهم ثم يحييهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه . وقد نبه القرآن على ذلك ، قال تعالى : (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى اجل مسمى ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون)(٦) .

(الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت في منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل

---

(١) فصلت : ٣٩ .

(٢) فاطر : ٩ .

(٣) لقمان : ٢٨ .

(٤) البقرة : ٥٥ ، ٥٦ .

(٥) البقرة : ٢٢ ، ٢٣ .

(٦) الانعام : ٦٠ .

الاخرى الى اجل مسمى ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)(١) جاء بتفسير الخازن :(٢) (ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) اي في البعث وذلك ان توفي نفس النائم وارسالها بعد التوفي دليل على البعث) .

ولقد أنام الله بعض عباده آمادا طويلة ، ثم ايقظهم ، ليجعل من هذه الظاهرة الخارقة آية ظاهرة للناس على قدرة الله على البعث والحياة الآخرى لتلفت انظارهم بقوة ، وتخرجهم من غفلة الالف والاعتياد ، كما فعل باصحاب الكهف وقصتهم معروفة بالقرآن ، فقد مكثوا فى كهفهم نائمين عدة قرون كما قال تعالى (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادو تسعا)(٣) .

وبعد ذلك ايقظهم الله ، وقد نص القرآن على الحكمة من وراء هذا الفعل الالهى بقوله تعالى : (وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لا ريب فيها)(٤) .

يقول البيضاوي :(٥) (وكذلك اعثرنا عليهم) وكما أنمناهم وبعثناهم لتزداد بصيرتهم اطلعنا عليهم (ليعلموا) ليعلم الذين اطلعناهم على حالهم أن وعد الله بالبعث او الموعود الذى هو البعث (حق) لان نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث (وان الساعة لا ريب فيها) وان القيامة لا ريب فى امكانها ، فان من توفى نفوسهم وامسكها ثلاثمائة سنين حافظا ابدانها من التحلل والتفتت ثم أرسلها اليها ، قدر ان يتوفي نفوس جميع الناس ممسكا اياها الى ان يحشر ابدانها فيردها عليها) .

ويدخل في الاستدلال على قدرة الله على البعث الآيات التى تلفت النظر الى مظاهر القدرة الالهية وعظمتها بصفة عامة ولو اجمالا كقوله تعالى : (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير)(٦) .

(فعال لما يريد)(٧) ، (انما أمره اذا اردا شيئا ان يقول له كن فيكون)(٨) .

وخلاصة القول ان الاستدلال على الآخرة انما يقوم بإثبات أمرين عظيمين :

الأول : انها مقتضى العدل والحكمة الالهية . .

الثانى : ان الله عز وجل قادر على ايجادها وبعث الخلق .

---

(١) الزمر : ٤٢ .

(٢) تفسير الخازن ٤/٥٧ دار المعرفة ـ بيروت .

(٣) الكهف : ٢٥ .

(٤) الكهف : ٢١ .

(٥) تفسير البيضاوى ص ٣٨٩ .

(٦) الملك : ١ .

(٧) البروج : ١٦ .

(٨) يس : ٨٢ .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود :(١) (وطبيعيو العرب لم يكن عندهم في هذه المسألة منطق جدلى فلسفي ، وليس لهم من دليل سوي الانكار والاستبعاد : (وقالوا إئذاكنا عظاما ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا)(٢) .

(قال من يحيى العظام وهى رميم)(٣) .

والقرآن يرد عليهم بتذكيرهم بمظاهر قدرة الله السائدة في الكون . وبأنه ليس من العدالة الالهية أن يترك الانسان سدى فلا يجازى على ما قدم) ثم يقول :(٤) (وفي القرآن كثير من الآيات ترد عليهم مستندة الى مظاهر قدرة الله وعدالته) .

الأصل الثاني : فضل الآخرة :

وإلى جوار اثبات الآخرة ـ وهو أساس القضية ـ بين القرآن فضلها على متاع هذه الحياة من الناحيتين الاساسيتين :

الاولى : درجة النعيم ومقداره ومستواه ، فهو في الآخرة ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من الثواب المادى والمعنوى والروحى . . وقد أفاض فيه الكتاب والسنة .

أما متاع الدنيا فهو قليل من النوع الادنى ، وهو مع ذلك ممزوج بكثير من الآلام والاكدار والمخاوف التى من اشدها والزمها ترقب الموت وصدق القائل : لا طيب للعيش مادامت منغصة لذاته بادكار الموت والهرم .

الثانية : المدة والبقاء ، فنعيم الآخرة ابدى لا يفنى ولا يزول ، لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى)(٥) .

أما متاع هذه الحياة فعمره سنوات قليلة معدودة ، كما جاء في قوله تعالي (قال كم لبثتم في الارض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فاسأل العادين ، قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم

---

(١) التفكير الفلسفى في الاسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص ٧٢ ، دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ط ١ سنة ١٩٧٤ م .

(٢) الاسراء : ٤٩ .

(٣) يس : ٧٩ .

(٤) التفكير الفلسفى في الاسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص ٧٢ .

(٥) الدخان : ٥٦ .

كنتم تعلمون)(١) .

فكيف يقاس القصير الفانى بالخالد الباقى ، ان عمر التمتع الدنيوى بالاضافة الى خلود الآخرة شيء لا وزن له ولا قيمة .

وبهذا يعلم ان ثواب الآخرة خير في كمه وكيفه ، وأبقى في مدته وزمنه بغير حدود .

وبهذا التفضيل جاء القرآن ليوجه القلوب الى الذى هو خير وأفضل ، قال تعالى :

(زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وازواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد)(٢) (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وابقى)(٣) .

(أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل)(٤) (وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع)(٥) . (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى)(٦) .

ان السعادة الآخروية كما يقول الامام الغزالى :(٧) (هى بقاء لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر معه يخالطه) .

هذا ، وقد ضرب الله الامثال لضآلة الدنيا ، وسرعة تقضيها ، وعرض هذا في صور محسة ، لتجلية شأنها ، وإزالة لغشاوة النفوس حتى تراها على حقيقتها ، ولابراز عظمة الآخرة ، ودوامها ، لتؤثرها القلوب عليها ، قال تعالى :

(اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ، سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو

---

(١) المؤمنون : ١١٢ ـ ١١٤ .
(٢) آل عمران : ١٤ ، ١٥ .
(٣) الاعلى : ١٦ ، ١٧ .
(٤) التوبة : ٣٨ .
(٥) الرعد : ٢٦ .
(٦) النساء : ٧٧ .
(٧) ميزان العمل للامام الغزالى ص ٩٧ .

الفضل العظيم)⁽¹⁾ .

وقال تعالى : (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض ، مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ، والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم)⁽²⁾ .

وقال تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)⁽³⁾ .

الاصل الثالث : فضل السعى الى الآخرة :

عرفنا ان الآخرة خير وأبقى ، ولكن ليس كل نفيس في ذاته . يمكن الحصول عليه ، أو يكون السعى اليه مجديا ، كما سبق .

لذا بين القرآن فضل السعى الى الآخرة وحسن عاقبته ، مقارنا بخسران السعى الى الدنيا كغاية وسوء عاقبته ، ليختار العاقل خير العملين ، وافضل الطريقين ومما ورد فى هذا قوله تعالى :

(ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون اولئك مأوهم النار بما كانوا يكسبون ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الانهار في جنات النعيم)⁽⁴⁾ (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا)⁽⁵⁾ .

(من كان يريد حرث الآخرة نزدله في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب)⁽⁶⁾ .

---

(١) الحديد : ٢٠ ، ٢١ .
(٢) يونس : ٢٤ ، ٢٥ .
(٣) الكهف : ٤٥ ، ٤٦ .
(٤) يونس : ٧ ، ٨ ، ٩ .
(٥) الاسراء : ١٨ ، ١٩ .
(٦) الشورى : ٢٠ .

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون)(١) .

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)(٢) .

يقول ابو السعود :(٣) (تلك الدار الآخرة) اشارة تعظيم وتفخيم ، كأنه قيل تلك التى سمعت خبرها، وبلغك وصفها (نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض) أى غلبة وتسلطا (ولا فسادا) أى ظلما وعدوانا على العباد كدأب فرعون وقارون .. (والعاقبة) الحميدة (للمتقين) أى الذين يتقون ما لا يرضاه الله من الافعال والاقوال) ..

الاصل الرابع : رسم منهجها :

لم يقف القرآن الكريم عندما تقدم من اثبات الآخرة ، وبيان فضلها وفضل السعى اليها ، بل رسم الطريق الذى يوصل الى سعادتها ، فبين انه الدين الذى شرعه الله لعباده بعقيدته وشريعته، وأمره ونهيه ، وسائر تعاليمه وتوجيهاته .

كما بين انه لا طريق غيره ، ولا سبيل سواه .

فالاسلام وحده هو الصراط المستقيم . والمنهج الذى يحقق ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والذى أمر الانسان باتباعه ونبذ ما عداه ، فلا يعدل بالاسلام نظاما . ولا يرضى سواه اماما ، وقد أمرنا بطلب الهداية اليه ، وأرشدنا الى ذلك ، قال تعالى :

(اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)(٤) (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)(٥).

(ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين(٦) فمن اراد ان يحصل على الرضوان والثواب الابدى ، فليرجع الى الاسلام ليعرف ما كلفه الله به وما اهداه اليه ، ثم ليطع ربه وليستجيب له ويتبع هداه بهذا يفوز بالسعادة في دار الخلود ، وبالحياة الطيبة

---

(١) هود : ١٥ ، ١٦ .

(٢) القصص : ٨٣ .

(٣) تفسير أبى السعود ٤/٣٢٢ - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض (بتصرف) .

(٤) الفاتحة : ٦ ، ٧ .

(٥) الانعام : ١٥٣ .

(٦) آل عمران : ٨٥ .

في العاجلة .

(ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم)(١) .

(ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون)(٢) .

الاصل الخامس : نصب القدوة

أي نصب القدوة في اعتناق الغاية العليا ، ولا يخفي ما للقدوة من اهمية كبرى وأثر فعال في هذا الجانب وفي سائر الجوانب السلوكية والاخلاقية وفي معنى قوله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة)(٣) يقول الدكتور التهامى نقرة :(٤) (فالآية تشير الى مذهب جليل في الاخلاق ، وهو مذهب القدوة والمثل ، وتهيب بكل من يتولي شأنا عاما من شئون الناس ، ان يأخذ نفسه اولا بما يطالب الناس ان يأخذوا انفسهم به ، حتى يكونوا قدوة لغيرهم ، فيرى الناس فى مرآة النفوس الكبيرة صورا طيبة يعملون على مثالها ، فالامثلة العالية تنتقل بين الناس ويلتزمها الجيل بعد الجيل .

وقد دلت التجربة التربوية على ان اشد المواعظ الدينية نفاذا الى القلوب ما عرض في اسلوب قصصى يحمل على المشاركة الوجدانية للاشخاص والتأثر بالاحداث والانفعال بالمواقف) .

ويقول الاستاذ احمد أمين في وسائل تربية الخلق :(٥) (ثالثا : مطالعة سير الابطال والنابغين ، فان حياتهم تتمثل امام القارىء ، وتوحى اليه بتقليدهم والاقتداء بهم ، ولم تخل امة من ابطال لا يقرأ القارىء ترجمة حياتهم الا ويشعر بأن روحا جديدا دب فيه وحركه للاتيان بعظائم الاعمال ، وكثيرا ما دفع الناس الى العمل الجليل حكاية قرأوها عن رجل عظيم او حادثة رويت عنه) .

لذا عرض القرآن الكريم نماذج مشرقة ، ومثلا عليا في طلب الرضوان والثواب الآخروى

---

(١) النساء : ١٣ .

(٢) النور: ٥٢ .

(٣) الاحزاب : ٢١ .

(٤) سيكلوجية القصة في القرآن للدكتور التهامى نقرة (رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة) ص ٥٤٣ الشركة التونسية للتوزيع - بتصرف . .

(٥) كتاب الاخلاق للاستاذ أحمد أمين ص ٦٥ - دار الكتاب العربى - بيروت سنة ١٩٧٤ م .

فيما ذكر من قصص الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين كنوح وابراهيم وموسى وعيسى ، واصحاب الكهف ، ومؤمن آل فرعون ، واصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . .

ولا شك ان الرسل في المقدمة وامامهم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام قال تعالى بعد ان ذكر طائفة من الانبياء : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)(١) .

وقال في ابراهيم والذين معه : (لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر)(٢) .

وقال تعالى : (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب اولى الايدى والابصار انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار)(٣) يقول البيضاوى :(٤) (انا أخلصناهم بخالصة) جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة لا شوب فيها هى (ذكرى الدار) تذكرهم للآخرة دائما فان خلوصهم في الطاعة بسببها . وذلك لان مطمح نظرهم فيما يأتون به ويذرون جوار الله تعالى والفوز بلقائه وذلك في الآخرة ، واطلاق الدار للاشعار بانها الدار الحقيقية ، والدنيا معبر) .

وقال جل شأنه في نبينا صلى الله عليه وسلم : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)(٥) .

ولا يفوتنا ان نذكر مع ذلك وبجواره ان القرآن تناول ايضا طلاب الدنيا الذين آثروها على ما عند الله ، فكانت اكبرهمهم ومبلغ علمهم ، فعرض لهم نماذج تجسد جرائمهم ومظالمهم . . كما تصور سوء عاقبتهم ومصيرهم لمزيد الترهيب والتنفير من مسلكهم ، وشمل ذلك أمما وافرادا وفى هذا يقول القرآن :

(وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين ، فكلا اخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ، ومنهم من اغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون)(٦) .

هذا في الدنيا ولعذاب الآخرة اشدو وأبقى ، وصدق الله اذ يقول : (ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما

---

(١) الانعام : ٩٠ .

(٢) الممتحنه : ٦ .

(٣) سورة ص : ٤٥ ، ٤٦ .

(٤) تفسير البيضاوى ص ٦٠٤ .

(٥) الاحزاب : ٢١ .

(٦) العنكبوت : ٣٨ - ٤٠ .

كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون)(١) .

هكذا فصل القرآن وصرف الآيات في الدعوة الى الآخرة وتفضيلها ولا شكٍ ان التأمل فيما ذكره ، وتدبره والايمان به ، يوجب ايثارها وان تكون هى الغاية العليا في الحياة ، وهذا هو مطلب الشارع الحكيم الذي علم الانسان ما لم يعلم ، كما يفهم من قوله تعالى تعليما لنبيه وارشادا لامته : (قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين)(٢) .

آثار الغاية العليا :

الغاية العليا التى دعا اليها القرآن الكريم تحيى النفس الانسانية من جميع أقطارها ، وتصلح كيان الانسان بأسره ، وتبلغه الكمال المقدر له بقدر صدق المرء فى التزامها والقصد إليها .

فضلا عن تحقيقها بالفعل والفوز بالسعادة فى الدار الباقية بعد أن كانت أملا فى القلب ، فإن المقصد أول مايحضر فى الذهن . . وآخر مايتحقق بالعمل ، وفى هذا قيل :

نعم ماقال سادة الأول : أول الفكر آخر العمل ، والذى يعنينا هنا إنما هو تقرير أثرها فى الكيان الانسانى ، انها كما سبق أساس صلاحه واستقامته ، فهى التى تحجز عن المظالم والشرور والآثام ، وهى التى تحمله على أداء الفرائض والواجبات ، وهى التى تدعوه فوق ذلك الى الاجتهاد فى التقرب الى الله بأنواع البر ونوافل الطاعات . قال تعالى : « كانوا قليلا من الليل مايهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »(٣) .

« أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولو الالباب » .(٤)

« إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لايشركون ، والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » .(٥)

---

(١) الاحقاف : ٢٠ .

(٢) الانعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٣) الذاريات : ١٧ ـ١٩ .

(٤) الزمر : ٩ .

(٥) المؤمنون : ٥٧ ـ ٦١ .

قال ابن كثير (١)« يقول الله تعالى « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون » أى هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم ، كما قال الحسن البصرى : إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة وإن الكافر جمع اساءة وأمنا » .

وعن عائشة رضى الله عنها انها قالت : يارسول الله « الذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة » هو الذى يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : لايابنت الصديق ، ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل » . (٢)

وإنما يحمل طلب رضوان الله وثواب الآخرة على الطاعة والسلوك الأمثل لأنه السبيل الفذ لتحصيل ذلك والفوز به ، كما قال تعالى :

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »(٣)« وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يأولى الألباب » . (٤)

هذا ، والغاية العليا فيما ذكر نقيض الغاية الدنيا وضدها .

يقول بعض الباحثين . (٥) « ومن أهمية الإيمان بالبعث (٦)أنه يقوم عليه صلاح حياة الناس فى الدنيا ، لأن ايمان الناس بأنهم سوف يبعثون ويجازون على أعمالهم ، من اعظم الدوافع على القيام بأعمال الخير والبر ونشر الفضيلة ، والرغبة فى الاحسان والايثار ، لما يجده الانسان من اليقين بأنه سيلاقى ثواب مايقدمه عند الله ، كما يحمله ذلك ايضا على الصبر واحتمال الأذى والشدائد فى ذات الله تعالى ، كما أن الايمان بالبعث والجزاء ايضا مما يحمل على الكف عن اقتراف الشرور والآثام ، والكف عن البغى والظلم والفساد ، لما يعلمه الانسان من انه سوف يلقى ربه سبحانه ، ويجده قد أحصى عليه كل صغيرة وكبيرة من أعماله ، وانه لن يفلت من قبضته .

أما عند عدم الإيمان باليوم الآخر فان الحياة تتحول الى شرور لانهاية لها ، لان الانسان الذى

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٤٨ ـ دار المعرفة ـ بيروت سنة ١٩٦٩ م .

(٢) رواه الإمام احمد والترمذى وابن ابى حاتم .

(٣) الكهف : ١١٠ .

(٤) البقرة : ١٩٧ .

(٥) هو عبد الوهاب بن لطف الديلمى فى رسالته للدكتوراه معالم الدعوة فى قصص القرآن الكريم ١/ ٢٣٨ . بتصرف .

(٦) الايمان بالآخرة حقا يلزمه طلبها كغاية ، كما سبق فى بحث (الآخرة عقيده وغاية) .

يوقن بأن حياته ستنتهى على هذه الارض بعد فترة من الزمن ، ولا يؤمن برجعة بعدها ، يحرص على أن يشبع رغباته وشهواته وأن ينال اكبر لذة قبل ان توافيه المنية ، فيسلك كل سبيل ولا يرده عن ذلك شيء ، وفى هذه الحال لا يبالى ان يقترف أى أثم أو ظلم ، مادام ذلك سيحقق له مصلحة ، فيعم بذلك الشر والفساد وتتحول الحياة الى جحيم .

علم مما تقدم ان طلب الآخرة هو الذى يصلح النفس الانسانية من جميع نواحيها وينبغى هنا أن نلاحظ ان هذا يشمل آثارا كثيرة هامة من أبرزها :

أولا : ذكر الله ومراقبته :

وهذا أمر فطرى ، فمادام رضوان الله وثوابه هو وجهة المؤمن ، وباعثه فى كل حركة وسكون ، فإنه يكون قبل كل شيء ذاكرا لله ، مراقبا له ، معتبرا بآياته ، يتمتع بيقظة الضمير ، ودقة الاحساس بالخير والشر .

فإذا شاهد المخلوقات وعجائبها ذكره لأنه خالقها .

وإذا علم شيئا من دينه وكتابه العزيز ذكره لانه شارعه ومنزله .

وإذا عمل حسنة ذكره لأنه يرجو ثوابه .

وإذا فعل سيئة ذكره لأنه يخشى عقابه .

وهكذا يظل قلبه معلقا بالله فى جميع أحواله .

نرى هذا واضحا فى نحو قوله عز وجل :

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .(١)

«قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » .(٢)

« والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » .(٣)

« والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » .(٤)

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٢) آل عمران : ٢٦ .

(٣) الفرقان : ٧٣ .

(٤) آل عمران : ١٣٥ .

«وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » .(١)

« لاأقسم بيوم القيامة ولاأقسم بالنفس اللوامة » .(٢)

« أخرج عبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس عن الحسن « ولاأقسم بالنفس اللوامة » قال : إن المؤمن لاتراه الا يلوم نفسه ، ماأردت بكلمتى ؟ ، ماأردت بأكلتى ؟ ماأردت بحديثى نفسى ، ولاأراه الا يعاتبها ، وإن الفاجر يمضى قدما لايعاتب نفسه » .(٣)

ولاشك أن ذكر الله على هذا النحو يمنح القلب هدى ونورا ، ويملؤه سكينه وراحة من هموم الدنيا ، قال تعالى :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » .(٤)

يقول البيضاوى :(٥) « وتطمئن قلوبهم بذكر الله » أنسابه واعتمادا عليه ورجاء منه ، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته ، أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته ، أو بكلامه يعنى القرآن الذى هو أقوى المعجزات » .

يقول ابن القيم :(٦)« القلب لايفلح ولايصلح ولايتنعم ولايبتهج ولايلتذ ولايطمئن ولايسكن الا بعبادة ربه وحبه والإنابة اليه ، ولو حصل له جميع مايلتذ به من المخلوقات لم يطمئن اليها ، ولم يسكن اليها ، بل لاتزيده الافاقة وقلقا حتى يظفر بما خلق له ، وهىء له من كون الله وحده نهاية مراده ، وغاية مطالبة ، فإن فيه فقرا ذاتيا الى ربه والهه من حيث هو معبوده ومحبوبه والهه ومطلوبه ، كما أن فيه فقرا ذاتيا من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره .

ومامن مؤمن الا وفى قلبه محبة لله تعالى ، وطمأنينه بذكره ، وتنعم بمعرفته ولذه وسرور بذكره ، وشوق الى لقائه وأنس بقربه ، وإن لم يحس به ، وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه ، هو بحسب قوة الايمان وضعفه وزيادته ونقصانه » .

---

(١) هود : ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٢) القيامه : ١,٢ .

(٣) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطى ٦/٢٨٧ ـ دار المعرفة ـ بيروت .

(٤) الرعد : ٢٨ .

(٥) تفسير البيضاوى صـ ٣٣٢ .

(٦) إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/١٩٨ ـ بتصرف .

هذا بخلاف الماديين الذين تعلقوا بالدنيا وآثروها فإنهم يصابون بالغفلة واستغلاق القلب ، كما يعانون من شتات النفس ، وضيق الصدر ، كما قال تعالى فى بيان حالهم :

« ولاتكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم » . (١)

« إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن أياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » . (٢)

« ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطرا لسوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا » . (٣)

ثانيا : استقامة الفكر :

طلب الرضوان وثواب الآخرة ، يعين على استقامة الفكر ، وسداد النظر وصحة الحكم ، لان صاحب هذه الغاية يتخذها معيارا ومقياسا يقدر به الاشياء ويميز مافيها من خير وشر .

وهذا بخلاف حال من غلب على قلبه حب الدنيا ، فانه يرى الاشياء على غير وجهها حتى يرى حسنا ماليس بالحسن .

يوضح ذلك ماذكره القرآن فى قصة قارون من أنه خرج على قومه فى زينته ، فاعجب بمظهره الذين يريدون الحياة الدنيا ، ورأوا انه ذو حظ عظيم ، أما المؤمنون الذين يزنون الأمور بميزان الآخرة ، فبينوا ان هذا الرأى خطأ ، وان قارون فى الحقيقه خائب خاسر بايثاره الدنيا ، لان ماأعد الله لاهل طاعته خير مما أوتى قارون بل من الدنيا ومافيها ، قال تعالى :

« فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا » . (٤)

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : « إن الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون » . (٥)

---

(١) الحشر : ١٩ .

(٢) يونس : ٨,٧ .

(٣) الفرقان : ٤٠ .

(٤) القصص : ٨٠,٧٩ .

(٥) النمل : ٤ .

ثالثا : الحب والبغض فى الله :

من ثمار ابتغاء ماعند الله ، الحب لأوليائه والبغض لأعدائه كما يرشد الى ذلك قوله عز وجل :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا » .(١)

« لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » .(٢)

أما عباد الدنيا فيبغضون المؤمنين الاتقياء . . لايمانهم ولتقواهم وصلاحهم ، كما قرر القرآن بقوله :

« ومانقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .(٣)

« فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون » .(٤)

وفى الوقت الذى يمقتون فيه الاتقياء الابرار ، يحبون فيه أمثالهم من المفسدين الاشرار .

« والمنافقون والمنافقات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم » .(٥)

رابعا : الرحمة بالضعيف :

من تلك الأثار الرحمة بالضعيف والمحتاج بصفة عامة ، ولو كان كافرا أو حيوانا ، ابتغاء مثوبة الله ورحمته ، كما قال تعالى :

« ويطعمون الطعام على حبة مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » .(٦)

يقول البيضاوى :(٧)« ويطعمون الطعام على حبة » حب الله او الطعام او الاطعام « مسكينا

---

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) المجادله : ٢٢ .

(٣) البروج : ٨ .

(٤) النمل : ٥٦ .

(٥) التوبه : ٦٧ .

(٦) الدهر : ٨ ـ ١٠ .

(٧) تفسير البيضاوى صـ ٧٧٤ ـ بتصرف .

ويتيما واسيرا » يعنى أسارى الكفار فانه عليه الصلاة والسلام كان يؤتى بالاسير فيدفعه الى بعض المسلمين فيقول احسن اليه ، او الاسير المؤمن ويدخل فيه المملوك والمسجون « إنما نطعمكم لوجه الله » على إرادة القول بلسان الحال أو المقال إزاحة لتوهم المن وتوقع المكافأة المنقصة للأجر » .

أما هؤلاء الذين لايرجون الله واليوم الآخر فإن قلوبهم قاسية جامدة ولايشفقون على مسكين أويتيم ، بل يستذلون الناس ويسومونهم سوء العذاب . كما قال القرآن فى شأن فرعون : « إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين » .(١)

وكما قال فى شأن أمثاله ممن لايوقنون بيوم الحساب : « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولايحض على طعام المسكين » .(٢)

جاء فى تفسير البيضاوى :(٣)« الذى يكذب بالدين » بالجزاء او الاسلام « فذلك الذى يدع اليتيم » يدفعه دفعا عنيفا « ولايحض » أهله وغيرهم على طعام المسكين لعدم اعتقاده بالجزاء .

خامسا : القوة والإقدام :

طلب الآخرة أعظم البواعث على القوة والاقدام فى سبيل الحق ، لأنه من أوسع أبواب الثواب والنعيم فى دار القرار ، مع مراعاة ان طالب الآخرة لايضعفه حرص ولاطمع فى الدنيا ، فهو متحرر من جواذب الارض وأثقال الشهوات ، فلا يجبن ولايستخذى ولايداهن قال تعالى :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » .(٤)

أما أصحاب العاجلة فانهم على عكس ذلك ، لتعلقهم بمتاعها وكراهيتهم لمفارقته .

على ذلك النمط الرفيع من القوة والصلابة فى الحق ، عاش أهل اليقين من الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين .

ومن أظهر الامثلة على هذا مؤمن آل فرعون الذى وقف وحده يدافع عن دعوة الله ورسوله

---

(١) القصص : ٤ .

(٢) الماعون : ١ -٣ .

(٣) تفسير البيضاوى صـ ٨١٢ - بتصرف .

(٤) النساء : ٧٤ .

موسى عليه السلام ، فى وجوه الطغاة الجبارين من قومه ، كما حكى القرآن بقوله « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه اتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .(١) وقد ظهرت الدوافع التى تحركه وتختلج فى صدره فى كلماته حيث يقول :

« ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » .(٢)

ومن أمثلة ذلك الرجل المؤمن الذى جاء من أقصى المدينة مسرعا لينصر الدعاة الى الله فكان نصيبه الشهادة كما قال عز وجل :

« وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون أأتخذ من دونة آلهة أن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون انى إذن لفى ضلال مبين انى آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » .(٣)

جاء فى التحرير والتنوير :(٤)« وفى قوله « قيل ادخل الجنة » كناية عن قتله شهيدا فى إعلاء كلمة الله لأن تعقيب موعظته بأمره بدخول الجنة دفعة بلا انتقال يفيد بدلالة الاقتضاء أنه مات ، وأنهم قتلوه لمخالفته دينهم ، وإن هذا الرجل المؤمن قد أدخل الجنة عقب موته ، لانه كان من الشهداء ، والشهداء لهم مزيه التعجيل بدخول الجنة دخولا غير موسع ، والقائل « ادخل الجنة » هو الله تعالى » .

وخلاصة القول أن الصدق فى طلب الآخرة وإيثارها ، يطهر النفس الانسانية ويزكيها ، ويبلغها الكمال المقدر لها ، على قدر ذلك ، وهذا بدوره يضاعف سعادة الانسان ، وطمأنينة قلبه ، ويجعله مصدر خير لمجتمعه ، كما يورثة الجنة والنعيم المقيم .

وعلى نقيض هذا يكون إيثار الدنيا والاخلاد الى الارض ، واتباع الاهواء والشهوات ، كما قال تعالى : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين

---

(١) غافر : ٢٨ .

(٢) غافر : ٣٩,٤٠ .

(٣) يس : ٢٠ ـ ٢٧ .

(٤) تفسير التحرير والتنوير تأليف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٢٢ / ٣٧٠ ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس سنة ١٩٨٤ م ـ بتصرف .

ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه . . » .(١)

الغاية العليا والزهد :

بقى سؤال : هل إيثار الآخرة يقتضى رفض الدنيا والزهد فيها ؟

والجواب : هنا تفصيل

فذلك الإيثار يقتضى رفض الدنيا والزهد فيها كغاية عليا ، لأن العقيدة التى تدعو الى النزوعين واحدة ، هى الايمان بأن الآخرة خير وابقى كما سبق(٢) ، فإن هذا يدعو بقدر تمكنه من القلب الى الرغبه فيما يبقى والزهد فيما يفنى .

قد يتوهم مما ذكر أن القرآن يرفض الدنيا رفضا تاما بصورة كلية وليس الأمر كذلك ، فالقرآن انما يذمها باعتبارها المقصد الأسمى ، . كما يذم منها ماكان خبيثا ضارا لعينه او لطريقة كسبه والتصرف فيه ، ومتى سلمت وخلصت من ذلك فهو لا يرفضها ولا يذمها ، بل يدعو المؤمن ان يحرص عليها ويدبر شئونها باعتبارها عدة الآخرة ووسيلتها ، ومجال التزود لاحراز الفوز والسبق فيها ، وقد صرح بذلك قوله تعالى :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .(٣)

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .(٤)

قال ابو السعود :(٥)« وابتغ » وقرىء « واتبع » ، « فيما آتاك الله » من الغنى « الدار الآخرة » أى ثواب الله تعالى فيها بصرفه الى مايكون وسيلة اليه « ولاتنس » أى لاتترك ترك المنسى « نصيبك من الدنيا » وهو أن تحصل بها آخرتك ، وتأخذ منها مايكفيك » .

وفى هذا يقول الشيخ الغزالى :(٦) « قد ألح الدين فى إفهام الناس أن الدنيا لاتطلب لذاتها ، وانها لاتستحق ان يتفانى الناس فيها ، انها اذا لم تكن وسيلة للآخرة ، واذا لم تصنع منها

---

(١) الاعراف : ١٧٥ ـ ١٧٦ .

(٢) انظر موضوع (الآخرة عقيدة وغاية) من هذا البحث .

(٣) الاعراف : ٣٢ .

(٤) القصص : ٧٧ .

(٥) تفسير ابى السعود ٤/ ٣١٩ .

(٦) الجانب العاطفى من الاسلام للشيخ محمد الغزالى صــ ٢٠٦ ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ـ بتصرف يسير .

جسرا تعبر منه الى رضوان الله فلا خير فيها ، اطلبها وامتلكها كلها ان استطعت ، لكن على هذا الاساس ، ان الله لم يقل لقارون صاحب الكنوز الهائلة : انخلع من مالك كى أرضى عنك ، لا ، ابق فيه ولكن « ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا » الاسلام يحتقر الدنيا اشد الاحتقار عندما تكون الأمل الذى لاأمل معه وعندما يركض البشر فى طلابها لالشىء الا الحصول عليها والاستكثار منها ، ثم الموت فى اطوائها ، كما تموت دودة القز داخل ماتنسج ، وليست تنسج لنفسها شيئا .

إنه يحتقرها هدفا ، ولكنه يحتفى بها وسيلة » .

ومادامت الدنيا إنما تقصد للفوز والسبق فى الآخرة فإن هذا يتطلب أمورا اساسية :

الأول : طلب الحلال الطيب من المال والمتاع الدنيوى ، بقصد إنفاقه والاستعانه به على آمر الدين والآخرة ، وبقدر ذلك ، قليلا كان أو كثيرا ، لان هذا هو الذى يستوجب ثوابها والفوز فيها .

قال صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى طيب لايقبل الا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : « ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » ، وقال تعالى : « يايها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم » .(١)

ويتضمن هذا استحضار نية الطاعة والتقرب الى الله ، فى تحصيل مايحتاج اليه من هذا الحلال فى اصلاح نفسه كالمطعم والمشرب ، والملبس والمركب ، ومثل القيام بأعمال الوقاية والعلاج ، ونحو ذلك من العاديات على أن يقتصر منها على قدر الحاجة .

وهذه النية مندوبة فيما ذكر لتحقيق الثواب المنشود ، وبدونها لايؤاخذ المؤمن ، ولكن يضيع أجره ، وكفى بذلك خسارة وحرمانا ، والاصل فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى » .(٢)

وعلى ذلك يحمل كلام الامام الغزالى إذ يقول :(٣) « والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لايجوز ان ينسب الى الدنيا ، بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين ، لانه شرط الدين والشرط من جملة المشروط .

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٣) إحياء علوم الدين للامام الغزالى ٢٤٨٣/٥ .

وفى هذا يقول صاحب الذريعة :(١) « الاعتبار فى تناول الدنيا والاستكثار منها أو الاستقلال ، الزهد فيها أو الرغبة ، لاتناول الكثير والقليل ، بل تناولها من حيث مايجب ، ووضعها كما يجب ، قال أمير المؤمنين رضى الله عنه لو أن رجلا أخذ جميع مافى الارض وأراد به وجه الله تعالى يسمى زاهدا ولو أنه ترك جميع مافى الارض ، ولم يرد بتركه وجه الله تعالى ، لم يسم زاهدا ، ولاكان لله تعالى فى ذلك عابدا . فليكن آخذك الذى تأخذه وتركك الذى تتركه لله عز وجل لالغيره » .

الثانى : البعد عن الحرام مطلقا كسبه وادخاره واستهلاكه واستعماله وسائر مايتعلق به من التصرفات ، لان الشرع اذا حرم شيئا حرم كل مايتصل به وهذا واجب مفروض ، لان مخالفته تستوجب السخط والعقاب الالهى ، ولايسمى اجتناب المحرم زهدا فى العادة .

الثالث : اتقاء الشبهات والمكروهات من جميع الوجوه كما سبق ، لأن اقترافها لاخير فيه فى الحياتين ، وقد يجر الى الوقوع فى الحرام ، لذا أمرنا بالتنزه عنها أمرا مؤكدا وإن لم يصل الى درجة الفرض .

قال صلى الله عليه وسلم : « إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك ان يرتع فيه » .(٢) واتقاء الشبهات يسمى ورعا ، ولايسمى زهدا .

الرابع : ترك فضول الحلال ، والفضل هو مازاد على قدر الحاجة . والحق ان اخذ الفضل والتوسع فى الحلال ، والتمتع بالكماليات ، أمر مباح لايمنع منه الشرع ، مادام لم يصل الى حد الاسراف ، قال تعالى :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .(٣)

ومع أن ذلك مباح ولاتبعة فيه ، فإنه يحرم من ثواب التقرب بها الى الله ، والله خير وابقى وهذا مايدعوا طالب الآخرة الى ترك هذا التصرف بها ، واستغلالها فى التزود ليوم الحساب وهو

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة للشيخ ابى القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الاصفهانى صـ ٢٨٦ - دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير .

(٣) الأعراف : ٣٢ .

ماأرشد اليه النبى صلى الله عليه وسلم :

عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما نحن فى سفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ جاء رجل على راحلة له ، قال : فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لازاد له » ، قال : فذكر من اصناف المال ماذكر ، حتى رأينا انه لاحق لأحد منا فى فضل » .(١)

وعن أبى أمامه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ياابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك ، وأن تمسكه شر لك ، ولاتلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول » .(٢)

وترك الفضول مندوب ، وليس واجبا ، وهو الذى يسمى زهدا عرفا وعادة .(٣)

وعلى هذا النمط عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ، كما يعرف من سيرته وتاريخ اصحابه الأعلام ومما هو جدير بالذكر ان مقدار مايحتاج اليه المرء من الدنيا ليعيش وتقوم حياته هو ومن يعول يختلف من شخص الى آخر ، بل يختلف فى الشخص الواحد من حال الى حال ، فقد يكون كثيرا ، وقد يكون قليلا ، وذلك بحسب ظروفه الشخصية والاجتماعية ، ومسئولياته الدينية ، كأن يكون شخصا عاديا محدود التكاليف ، أو يكون من الدعاة او

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم والترمذى وغيرهما .

(٣) زاد بعضهم على هذا مرتبة أعلى فى الزهد ، وهى ترك مايشغل عن الله عز وجل . وأحسب أن هذا صعب لايتيسر الا للأنبياء ، لطبيعة النفس البشرية ، ولاشتغالها بما لابد منه من شئون الحياة ، ولما ورد فى السنة عن حنظلة بن الربيع الأسيدى الكاتب أحد كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : لقينى أبو بكر رضى الله عنه ، فقال : كيف انت ياحنظلة قلت : نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ماتقول ؟ قلت : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأى عين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا ، قال أبو بكر رضى الله عنه : فوالله إنا لنلقى مثل هذا ، فانطلقت أنا وابو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : نافق حنظلة يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وماذاك ؟ قلت يارسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى العين ، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده أن لو تدومون على ماتكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم ، وفى طرقكم ، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة » ثلاث مرات » ـ رواه مسلم .

المصلحين الذين يحملون مهمات أكبر .

ومتى عرفت حاجة المرء عرف مازاد عليها وهو الفضل ، وهو بالتالى يتفاوت بحسب الافراد ، ويتفاوت فى الفرد الواحد بحسب الاحوال . فعلى أساس حال الانسان وظروفه المشار اليها تقدر حاجاته وكمالياته لاعلى أساس الشكل والمظهر .

هذه هى توجيهات القرآن والدين الصريحة فى طلب متاع هذه الحياة واذا كانت الدنيا إنما تطلب وسيلة لما بعدها ، وقنطرة لمثوبته تعالى فإن طالبها يجب أن يلتزم القوانين التى شرعها من تطلب الدنيا لأجله وأن يأخذ بأحسنها ماستطاع الى ذلك سبيلا .

أقوال العلماء فى الزهد :

والقول بأن الزهد إنما يكون فى فضول الحلال هو المشهور عند العلماء يقول الامام الغزالى :[1] « والمقتصر على ترك المحظورات لايسمى زاهدا ، وإن كان قد زهد فى المحظور وانصرف عنه ، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات فإذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا الى الآخرة ، أوعن غير الله تعالى عدولا الى الله تعالى ، وهى الدرجة العليا » .

وجاء فى الإحياء :[2] « وقال قوم : الزهد هو الزهد فى الحلال لافى الشبهة والمحظور » .

وقال ابن القيم :[3] « سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : الزهد ترك مالاينفع فى الآخرة والورع ترك ماتخاف ضرره فى الآخرة ، وهذه العبارة من أحسن ماقيل فى « الزهد والورع » وأجمعها » .

وهناك فريق يرى أن الزهد يطلق على ترك الحرام ، وعلى ترك الشبهات وعلى ترك فضول المباح .

جاء فى الإحياء :[4] « فأما بالاضافة الى احكامه فينقسم الى فرض ، ونفل ، وسلامه ، كما قال ابراهيم بن أدهم ، فالفرض هو الزهد فى الحرام والنفل هو الزهد فى الحلال ، والسلامة هو الزهد فى الشبهات » .

وقال الامام احمد بن حنبل :[5] « الزهد على ثلاثة أوجة : الأول : ترك الحرام ، وهوزهد

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ٥/٢٤٤٥ .

(٢) احياء علوم الدين للإمام الغزالى ٥/٢٤٦٥ .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٢/١٠ ط ٢

(٤) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ٥/٢٤٦٤

(٥) مدارج السالكين لابن القيم ٢/١٢ .

العوام ، والثانى : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص ، والثالث : ترك مايشغل عن الله ، وهوزهد العارفين » وفضلا عن هذا توجد أقوال كثيرة أخرى فى الزهد لم يعبر بها أصحابها عن حقيقته الموضوعيه ، وإنما عبروا بها عن اذواقهم وأحوالهم ووجهات نظرهم الخاصة ، فتناول كل منها ناحية منه ، أو شيئا من مظاهرة ، ومن هنا اختلفت أقوالهم وتضاربت ، مع قلة جدواها فى تحديد المطلوب ، وقد ذكر الامام الغزالى أمثلة لها .(١)

وفى هذا يقول ابن القيم :(٢)« وقد اكثر الناس من الكلام فى الزهد ، وكل أشار الى ذوقه ، ونطق عن حاله وشاهده ، فان غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم ، والكلام بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذوق ، وأقرب الى الحجة والبرهان » .

هذه خلاصة القول فى الموضوع ، ولعل ماذكر يسهم فى إظهار ملامح الزهد الصحيحة ، وفى كشف علاقته بالغاية العليا ، وإزاحة مايكتنف ذلك من غيوم .

* * *

إن أمر المعاد أهم من الدنيا ومافيها ، إنه غاية الحياة ومقصدها الاسمى فيجب العناية به كل العناية ، والاستعداد له باليقين وكل جهد صالح ، كما قال تبارك وتعالى :« واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون » .(٣)

---

(١) انظر كتابه إحياء علوم الدين ٥/٢٤٦٣ .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٢/١٠ .

(٣) البقرة : ٢٨١ .

المراجع الأساسيه
مرتبة حسب ورودها فى البحث

١ الأخلاق : لأحمد أمين
٢ تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق : لابن مسكويه
٣ فلسفة الاخلاق فى الاسلام : للدكتور محمد يوسف موسى
٤ مذكرات علم الاخلاق : للدكتور محمد يوسف موسى
٥ تأملات فى فلسفة الاخلاق : لمنصور رجب
٦ إغاثة اللهفان : لابن القيم
٧ التفسير الكبير : للفخر الرازى
٨ الخلق الكامل : لجاد المولى
٩ تذكرة الدعاة : للبهى الخولى
١٠ تفسير القرآن العظيم : لابن كثير
١١ إحياء علوم الدين : للإمام الغزالى
١٢ مدارج السالكين : لابن القيم
١٣ ميزان العمل : للإمام الغزالى
١٤ معالم الدعوة فى قصص القرآنِ الكريم : للدكتور عبد الوهاب الديلمى
١٥ فى ظلا القرآن : لسيد قطب
١٦ انوار التنزيل : للبيضاوى
١٧ تفسير السراج المنير : للخطيب الشربينى
١٨ روح المعانى : للألوسى
١٩ فتح القدير : للشوكانى
٢٠ التفكير الفلسفى فى الاسلام : للدكتور عبد الحليم محمود
٢١ إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم : لأبى السعود

٢٢ سيكلوجيه القصة فى القرآن : للدكتور التهامى نقرة
٢٣ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور : لجلال الدين السيوطى
٢٤ تفسير التحرير والتنوير : لمحمد الطاهر بن عاشور
٢٥ الجانب العاطفى من الاسلام : لمحمد الغزالى
٢٦ الذريعة الى مكارم الشريعة : للراغب الاصفهانى